

ضد السائد

عبد الكريم الدخين

باحث شرعي، مهتم بالقضايا الفكرية.

"أنتم قطيع.."، كتبها ذلك الحساب الذي لا أدري جنس صاحبه ولا عمره، لكني رأيت الصورة التي وضعها، لوحة تحوي تحفة فنية رائعة، مجموعة من الأشخاص بعضهم خلف بعض ينتظمون في طابور صامت لا حياة فيه، لا ملامح لهم، أوزانهم متساوية وسقف أطوالهم واحد، يبدو أنهم يمشون إلى المجهول، إلى قدرهم الذي لا يعرفون، وفجأة خرج من بينهم أحدهم، كان يشبههم ينتمي إليهم ولكن قرر فجأة أن لا يستمر، لكن كانت روابطهم تمنعه ويبدو أنها كانت ترفض انعتاقه منها.



الصورة معبرة، نعم.. لماذا نكون كقطيع الخراف؟ لماذا نضطر أن نبقى كالدواجن في الحظيرة؟ يجب أن نخرج.. تماهيت معه، لكني تفاجأت أني أنا المعنيّ بكلامه!

أنا جزء من القطيع؟!

لماذا؟ ما السبب؟

سألته بلهفة.. قال: لأنك تأخذ بفتاوى فقهاء القرون الوسطى، وتسلم عقلك لرجال الدين.

لحظة هل هناك (رجال دين) عندنا؟ لأني منذ سنين أطلب العلم الشرعي ولم أصادف هذه الكلمة مصطلحًا ومعنى؟ أم هي كلمة ولدت وتطورت عند غيرنا وأشكلت عليهم فنقلت إلينا وهي ليست في قاموسنا.. نعم، نقلت إلينا؟ أي مَن رضي بها منا فقد (قلد فيها غيرنا)، بمعنى أنه من القطيع بحسب تعريفك للقطيع بأنه مُطلق الاتباع..

هنا مفارقة بيننا، مَن هو مُتبع القطيع؟!

الواقع أن المسألة خاضعة لمعيار ذاتي غير موضوعي، حُجة عاطفية تستخدمها وأستخدمها، شيء أشبه بكهف أفلاطون، أداة ممكن أن نضرب بها الآخر بسهولة.

أنا متفق معك بأن زلزلة النسق إن كان مهترئاً والتعدد في الرأي إن كان وفق معايير موضوعية ومقاومة التيار إن كان على خطأ أمر مهم ودليل وعي، لكن إن قلنا أن الانعتاق من القطيع جيد بالمطلق هل يعني هذا أن الخارج من النسق ومخترق السائد غير متبع لقطيع آخر حسب المعنى المجمل والمبهم للقطيع والسائد؟

لننظر في الأمر جيدًا وبدقة، هناك دولة فيها آلاف القرى والمدن، كل تلك المدن والقرى تسير في نظام واحد، تحتكم لأطر واحدة، وتنتظم في سلك قيمي وسلوكي واحد وإن كان بألوان متعددة، فقط هناك قرية خارجة عن هذه المنظومة، هذه القرية ضعيفة ولكنها معتزة جدًا بخروجها وانتمائها لذاتها ولجذورها، فجأة خرج من مجتمع هذه القرية مَن يقول لنحارب السائد عندنا، يجب الخروج على نظام القرية، أعتقوا عقولنا..

حسنًا، إلى أين تريد الذهاب؟

قال: أريد أن نكون مثل باقي مدن وقرى الدولة.

لقد سعى للخروج على سائد صغير هو أصلًا يشكل خروجاً على السائد العملاق الذي يريد الخروج إليه!

أليس بهذا قد أصبح في قطيع أكبر؟!

ألسنا في منظومة حاكمة ومسيطرة على العالم، نسير وفق اقتصاد محدد ومفروض، وقيم ترتبط بهذا الاقتصاد، وقوانين سياسية مفروضة وعلاقات دولية مؤطرة، ومحددات لكل معايير القيم وفق حضارة معينة نشأت في ظروف وشروط تاريخية معينة، ونرضخ لقوتها قسراً، هي مَن شكلت معنىً خاصاً بها عن الإنسان ثم فرضته على العالم ثم تحدثت باسمه، أنجبت ثورة على دين مُحرف فعممت ثورتها على الأديان كلها، خرجت لتقول للخرافة لا فدخلت في خرافة التعميم على كل ما يخالفها بالخرافة، فرضت نظمها في الاجتماع ومعاييرها حتى في الجمال، لتقول لكل مخالف: مكانك جهنمي، ولكل موافق: أنا أصنع لك جنتك على عيني، اختلف كما تريد إلا مع قيمي وحضارتي، اخترِق أي سائد إلا ما فرضته عليك من قوانيني.. أنا جعلت لك الحقوق التي اخترعتها وفق شروط تقدمي وقوتي، وأنت عليك المطالبة بها والسعي إليها ومحاربة قومك لأجلها من غير حتى عقلنتها أو نقاشها.



لقد سعى للخروج على سائد صغير هو أصلًا يشكل خروجاً على السائد العملاق الذي يريد الخروج إليه!
أليس بهذا قد أصبح في قطيع أكبر؟!

لو رجعنا إلى الوراء قليلًا لعصر النهضة الأوروبي، لوجدنا أن الحالة الأولى التي أوجدت روح الحضارة الحديثة وأسست لكل ما وصلت إليه هي عندما رجعوا للحضارات القديمة التي هي أصلًا متغلغلة في كيانهم الثقافي ولها جذور في اللاهوت المسيحي المحرف، النزعة الإنسانية بدأت بالترجمة لليونانية والرومانية وإحياء الفنون ونشر آداب تلك الحضارات، لقد كانت منتمية لحضارات سكنت محيطها الجغرافي وتجذرت في كيانها المعرفي، مع أن الحضارة الإسلامية كانت موجودة إلا أنها لم تكن رافداً أساسياً في البداية على الأقل، وإن كان تأثير ابن رشد له ما له.

وحينما جاء عصر التنوير اشتعلت الحركة الفكرية المقاومة للسائد



الـذي جلـب الـويلات عـلى الإنسـان الأوروبي، ومـع أن حضـارات الإسلام والهند والصين وغيرها كانـت موجـودة، إلا أن الانتقـال لم يكن لها، لم تكن ثورة التنوير تبعية لسائد آخـر، وإنما تغلغلـت في جذورها نفسها ففصلت الحق الطبيعـي عـن اللاهـوت المسـيحي، وألّهـت الإنسـان مـن منطلـق تأليـه المسـيحية لإنسـان المسـيح، وحاولت إيجاد حلول للتشريع في الديانة المسيحية وتغول الإقطاع وتبجح الاستبداد وسيطرة الأرستقراطية لتنتج من هـذا أنظمـة سياسية واجتماعية واقتصادية متوافقة مع قيم الحضارات التي أخذت منها، لقد كانـت صرخـات فـولتير ضـد الكنيسـة وسـخريته وسـعي ديـدرو للخـروج عـن كـل سـائد وتفلسـف كـانط ورؤيـة مونتسكيو وروسو وغيرهم كل ذلك كان أصـداء لواقـع مـأزوم، ولم يكن بأنفس تبعية، بل بالعكس كانت هناك أنفة تسكنهم واعتداد بكيانهم وهويتهم، أنتجت مركزية مستعلية وملونة بالبياض وتـرى الآخر مجرد حيوان يستحق الرحمـة، ومـن التلطـف بـه والعطـف عليه استعماره وتمدينه حسب رؤية الرجل الأبيض، وسلب خيراته، وفرض القيم التي ارتضوها هم عليه، بل وفرض منتجاتهم الفكرية كشكل الدولة وقوانين السياسة والنظم الاقتصادية.

> لم تكن ثورة التنوير تبعية لسائد آخر.

لحظة النهضة والتنوير كانت معالجة لـدين محـرف ولواقـع سـيئ لكن من غير اللجوء ابتداءً إلى حضارات أخرى في التكوين، من غير التقليد التعبّدي لغيرهم في الأصـول، ومـا قلـدوا فيـه لا يعـدو أن يكون تقليد منافسة ومماثلـة، ولأنها حركـة لم تعبأ بـوحي منـزل وأخلاق معبّدة لطريق التعقل فقد ضلّت طريقها وزاغـت، ولـيس هذا حديثنا الآن.. إنما المقصد أنهم خرجوا مـن سـائد لـيس لأجـل مجرد الخروج وليس لتقليد التعبد للغير وإنما لإبـداع واسـتقلال لم يُوفقوا فيه. المشكلة أن نتاج هذه العقول أصبح مقياسًـا للإبـداع، وصار كل انعتاق منه = تخلف، وكل استرقاق له = تحضر، أصـبح يجر السيناريو الذي مر به على كل حضارة وكل تـراث، فيجـب أن يكون كل نص مُحرف وكل تراث سبب تخلـف، لمـاذا؟ لأن تـراثهم كان كذلك، ويجب أن تمثل المسرحية كـما يريـد المخـرج، الانعتـاق من السائد أي القديم زمانًا، والولـع بالعقلانيـة أي حسـب أطرهـا التي حددها المخرج، وكل رفض لمشهد رآه المخرج حسنًا يُعد قبحًـا في ذاته، و كل استهجان لفلتة أقرّها المخرج تعنـي تخلـف ورجعيـة للقديم أي السائد.

السائد هو ما يحصل داخل المسرحية، أما عمـل المخـرج وتسـييره للعملية التمثيلية بآلية لا يزيغ عنهـا إلا هالـك فهـو لـيس سـائدًا، لماذا؟ لأن المخرج يريد هذا.

إن تحرير العقل لا يكون بتبعيته لعقل آخر، وإنما بإنزالـه منزلتـه، بالبحـث فيـه وإدراك كينونتـه، عَـرَضٌ هـو أم جـوهر؟ والنظـر في حدود إمكاناته وسقف تعاليه، والفطري المشترك فيه من الكسبي النسبي، وعدم خلط القبح الذوقي بالعقلي، وعدم استحداث صراع مبني على تبعية للآخر، أو فقط تحسس غير مـبرهن مـن الموجـود المنتشر.



فالله سبحانه وتعالى ذم التبعية للأكثرية في مواضع عديـدة، فقـال سبحانه: {فأبى أكثر الناس إلا كفوراً} الإسراء ٨٩، وقال: {ومـا يـؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون} يوسـف ١٠٦، وقـال: {ولكـن أكثـر الناس لا يعلمون} يوسف ٤٠، وقـال: {فـانظروا كيـف كـان عاقبـة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين} الروم ٤٢، وقال: {ولكـن أكثـر الناس لا يشكرون} غافر ٦١، وقال: {قل الحمد للـه بـل أكـثرهم لا يعقلون} العنكبوت ٦٣.

وفي المقابل مدح الأقلية: {وقليل من عبادي الشكور} سبأ ١٣.

فأي الناس أكثر وأيهم أقل؟ أهم أولئك الـذين يصـح فـيهم وصـف قـوم هـود كـما في قولـه تعـالى: {أتبنـون بكـل ريـع آيـة تعبثـون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين}؟ الشعراء ١٢٨: ١٣٠، أم أولئـك الـذين استضـعفوا في الأرض وجُعـل دينهم غريباً على منظومة تستبد بكل مخالف لها؟!



السائد لا حكم له في ذاته؛ فقد يكون خطأً كما فعل المشركون مع سائدهم: {قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون} الشعراء ٧٤، وقال تعالى: {بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون} الزخرف ٢٢.

وقد يكون صواباً كما فعل أبناء يعقوب عليه السلام مع أبيهم: {أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون} البقرة ١٣٣، وكما فعل يوسف عليه السلام: {واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون} يوسف ٣٨.

فالعبرة ليست بكثرة أو قلة، سائد أو مختلف، قديم أو محدث، هذه كلها أوصاف لا تجعل الفعل صحيحًا أو خاطئًا بذاته، وهي نسبية تختلف باختلاف الزمان والمكان، والاحتجاج بها مجردة يندرج تحت الحجج الشعرية الوهمية التي تستهدف عواطف الناس، وإنما العبرة بالبراهين الواضحة والحجج الدامغة.

> السائد لا حكم له في ذاته؛ فقد يكون خطأً كما فعل المشركون مع سائدهم... وقد يكون صواباً كما فعل أبناء يعقوب عليه السلام.

ولم يفرض الإسلام التقليد على عالم، بل الاجتهاد مطلب شرعي، و(تجديد الدين) بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم هو من الأمنيات لكل متعلم، وفي الإسلام يستطيع الجميع أن يكونوا علماء؛ فالعلم غير محتكر على أحد ولا يستطيع أحد احتكاره، ولكن مع هذا: فمن احترام العلم أن يُرجع إليه عند الحاجة، لذلك أوجب الإسلام على الجاهل أن يتبع العالم وإن كان هذا الأمر في دينه، فإن كانت علوم الدنيا توجب الأخذ عن علمائها فمن باب أولى الآخرة التي فيها النجاة، ولهذا تفصيل يطول ذكره.

المهم أن علماء الإسلام أنفسهم كانوا ينفرون من التقليد مع العلم؛ واتباع السائد من دون هدي ودليل، فاحتكامهم لم يكن للأشخاص، فهم غير معصومين، وإنما للمنهج وللبرهان.

نعم قصّرنا، ومنا مَن دخلت عليه عجمة الإكليروس ورأى العلماء كأنهم قساوسة، ومن بعض ضعاف طلبة العلم مَن مثلوا هذا الدور أيضًا، لكن هذا في قلة قليلة ولا تمثل ما عليه عامة أهل العلم. فالفقه الإسلامي انبنى على مجتمع يرتبط فيه الفرد عضوياً، ويمثل فيه المجتمع دور منتج القيم، وحارسها بنفس الوقت، ويقوم على أخلاقية عالية لا تتوافق مع المعنى المستحدث المسمى (القانون)، كان الفرد ينشأ وهو مستبطن قيمه ومُعقلنها فطرياً، وله مشاكله الأخرى المتعلقة بحياته ومعيشته، فلم يكن السائد يومًا خطأً ولم يكن مسلم القرون السابقة أقل ذكاءً وأضعف عقلًا من مسلم هذا القرن، وإنما لم تكن تعبث به ثقافة أخرى، فقد كانت الاختلافات في ظل منهجه.

> ولم يفرض الإسلام التقليد على عالم.

وكانت المذاهب تختلف فيما بينها بشدة وأحيانًا باعتداء وأخطاء لا يخلو منه مجتمع بشري، ومع ذلك فالكل يعرف المرجع ويشير إليه. أما مسلم هذا الزمن مع كل هذه التركة الثقيلة من التراث فإن خارطة نموذجه الإدراكي تغيرت، وأصبح مرتبطاً عضوياً بالدولة مع تنازع مع المجتمع، فهو بين فردانية تحكمها ظروف المعيشة، وجمعانية تحكمها ظروف العادات، لذلك بدأ الفقه يصبح غريباً عليه، وبدا هشاً أمام أي ثقافة نافقة، خصوصاً إن كان يُروج لها ليل نهار، من هنا خرجت حكاية الخروج على السائد لمجرد الخروج لا للبرهان.

وفي النهاية، من المعلوم أن القطيع لفظ يطلق على مجموعة من النعاج والخراف يقودهم حمار يركبه الراعي، والحمار ليس من فصيلة الخراف والراعي كذلك، إذن... فالسائر خلف هوية غير هويته ولفصيلة ليست فصيلته هو الذي يمشي مع القطيع وليس العكس..

أعتقد أنها وصلت!

